بحث طريف في «التوارج» الملثمين

مقام المرأة العالي عندهم

المرأة التارجية تمتاز عن الرجل بالفطنة والذكاء . ولكنها حُرمت كلّ ما في الانوثة من وداعة وجمال ، وكل ما في المرأة من فتنة وسحر . وقد امتاز الرجل عنها بالحسن ورشاقة القد ، وجمال الهندام . ولعلنا نستطيع بهذا ان نعلّل كثرة الشواعر من النساء، وقلة الشعراء من الرجال أعني ان المرأة رأت في الرجل من الجاذبية والاغراء ما أثار شاعريتها وملأ ما بين جوانحها عاطفة وشعوراً، فنظمت الشعر فيه . وان الرجل لم يجد في المرأة التارجية ما يجب ان يكون فيها من الروعة والفتنة ، فظلت عواطفه باردة ، وظلّ هو جامداً لا ينظم الشعر فيها . وقد يكون ايضاً هذا هو السبب في ان الرجل لا يتزوج اكثر من واحدة ، ولا يطلّقها يستبدلها بواحدة أخرى . الا ان هذا التعليل غير صحيح والحق انهم لا يعددون الزوجات ،ولا يطلّقون ،لان المرأة هي التي تتحكّم بالرجل تحكماً مطلقاً ، وتستأثر بالامر والنهي دونه ، داخل المنزل وخارجه . فأمر الزواج والطلاق وغيرهما كله بيد المرأة ، وهذه لا تحجم ان تقول للرجل : « ليس لك من الامر شيء ... »

ومع ان المرأة هي الآمرة الناهية ، لا تكاد الفتاة تمضي عقد زواجها الا عن اضطرار او عمّا يشبه الاضطرار ، لانها ترى في الزواج للرجل شبه سلطة عليها لا يدّعيها هو لنفسه ، ولا تعترف له هي بها . وهم يمدحون المرأة التي تعاف الزواج ،وتعيش عانسة عازبة وللنساء مثل اعلى في هذا الباب هو حياة « داسين » التي كن يعبدنها من دون الله و داسين هذه هي اخت آمنوكال ملكهم لم تتزوج قط في عمرها عزوفاً عن الرجال وكبرياء . وقد مدحها النساء على ذلك باشعار كثيرة . ووضعن عنها روايات ملأنها بمناقبها ومعجزاتها . حتى اصبحت اليوم موضوعاً للخرافات والاساطير

وهم يعنون بالفتاة اكثر مما يعنون بالغلام . فاذا وُلدت تباشروا بميلادها ، واولوها دون الغلام . واذا بلغت الحلم او غطّت رأسها كما يقولون ، اولوها ايضاً واحتفلوا بها . ويومئذ تحضر مع الاوانس سهرات « آهال » . وترى الفتيان يومئذ يعرضون انفسهم عليها عرضاً وهم في زينتهم . وفي افخر ملابسهم متلثمون متظرفون ، لا ترى الا اعينهم خلال النقاب . يريد كل واحد منهم ان ترضى عنه وتستخلصه لنفسها صاحباً او خطيباً . ولا يجرؤ احد منهم ان يفاتحها بكلمة في هذا الشأن فتمرّ هي بهم سافرة متبخترة . او ضاحكة مستبشرة ، تصفح هذا ، وتسخر من لثام هذا ، وتعجب برشاقة هذا . حتى اذا

اختارت واحداً منهم ورضيته لها خليلاً ، رجع الآخرون وكأنهم خسروا الدنيا والآخرة يحملون بين جنوبهم الغم والحسرة . ويرجع صاحبها ، وهو يطفر مرحاً ونشاطاً ، ويطفح زهواً وخيلاء ، يكاد يخرق الارض ويبلغ الجبال طولا . ثم يقضيان معاً مدة قبل الزواج يختلفان فيها بعضاً الى بعض ، ويخلوان بانفسهما ، ويجتمعان في سهرات «آهال» العمومية ليظهر لها هو انه كفوء لها ، ولتتأكد هي مما عنده من الادب والاستقامة . وما الادب والاستقامة في عرفهم الا واجبات عرفية يؤديها الرجال ، ولاسيما الفتيان على اتم وجه ، وبغاية التدقيق والويل كل الويل لمن فرّط في واجب منها كمن اكل او شرب او حسر عن لثامه امام امرأة غير زوجته ، فانهم يعدّون ذلك إهانة منه للمرأة لا يغفرونها . ومن كمال المروءة والادب عندهم ان لا يفعل الرجل شيئاً من ذلك امام المرأة مطلقاً . ويودّ الفتى لو تسوى به الارض دون ان تسمع عنه خطيبته انه اساء الادب ، فاكل امام امرأة . واني اعرف ان النساء في بعض قبائل البربر والعرب بالجزائر هن اللاتي لا يأكلن ولا يشربن امام الرجال على خلاف الامر عند التوارج . ولعلك تعجب جد العجب اذا قلت ان الفتى لا يلقى خطيبته الا متجملاً انيقاً . ولا تكاد هي تلقاه الا في بذلة خدمتها ! وماذا يغنيها بعد ما حرمت ما في المرأة من عذوبة وروعة ان تتزين بزينة مستعارة وجمال كاذب . واذا اجتمعا فلا يتحدثان في شيء ، الا ان يتطارحا احاديث الحب والغرام ، او ان يشكو بعضهما الى بعض ما يجده من حرارة الوجد به والشوق اليه . ومن الغريب ان الفتى لا يقبل خطيبته مطلقاً ، لا لانه يخاف ان يأثم بالتقبيل بل لان التقبيل عار عظيم في عرفهم . وبدلاً من ذلك فانه يشمها ويستنشقها كما تستنشق الريحانة او يشمها ويكرفها كما تكرف !

واذا رضيت الفتاة ، واعطت الخطيب أمارة على رضاها زوّجه منها ابوها . وتضطر العروس في ايام عرسها الاولى الى الزينة تتزين ، ولكن بماذا ؟ تصبغ غدائرها بالزيت والبحموم ، وتبيت في زينتها هذه ، وتصبح وقد طُلي بالسواد وجهها وجيدها وترائبها ، وتراها أنت صبيحتئذٍ ، فترى منظراً كريهاً على أشدّ ما يكون قبحاً وبشاعة

وحفلة العرس في باديتهم أن يخرج النساء الى عرصة من عرصات الحيّ ، يغنّين ويضربن الطبول ، ويركب نحو عشرة من الرجال نجائبهم ، ويرقصون جيئة وذهاباً . وغناء النساء وضربهنّ للطبول على حسب رسم المهاري . وعند الانتهاء تعمد فتاة آنسة الى خمارها فتجعله على عصاً تلوّح به ، فتستبق اليه المهاري ، والفخر كل الفخر لمن سبق فاختطف الخمار من يد الفتاة . وفي الحضر يرقص الرجال فُرادى ، يأخذ الراقص منهم حربتهُ (رمحهُ) بيده ، ويرقص على رِجْل واحدة . والذي اعلمهُ عن بعض قبائل العرب والبربر بالجزائر وفي بعض بلدان أسبانيا (وحتى في المراقص الاوربية اليوم) انهم اذا

كانوا في عرس فالعادة ان الرجال هم الذين يعزفون ، وان النساء هنَّ اللاتي يرقصنَ. واذا صحَّ ماقيل من أن هذا أثر من آثار استعباد المرأة وتحكّم الرجل بها حتى لا تعدو أن تكون له ملهاة يلهو بها ، كما يلهو بالآلة الصماء . فاننا نستطيع أن نعكس هذا بالنسبة الى التوارج . فالرجل هنالك هو الذي يرقص للمرأة ، ولا يعدو أن يكون ملهاة لها . ونستطيع أن نقول ان هذا من آثار تحكّم المرأة به ، حتى انهُ لا يعيش إلاّ لها

والمرأة في البلاد المتحضرة اذا تزوَّجت نُسخ اسمها ، واندمج في اسم الرجل ، فتعرَّف بالزوج ، وتُضاف اليه ، فيقال « مدام فلان » . والأمر في التوارج على خلاف ذلك ، فان المرأة هنالك لاترضى بان ينسخ اسمُ الرجل اسمَها ، ولا تعرَّف هي به ، أو تُضاف اليه ، بل هي التي قد تنسخ إسمَهُ باسمها ، فيقال « زوج فلانة » و « ابن فلانة » و « أبو فلانة » أي لا يندمج اسمها في اسم الرجل ، ولا تُضاف اليه ، سواء كانت زوجة أو بنتاً أو أمّاً على غير ماهو معروف بين المتمدّنين

« آهالْ »

ولعلَّ الظاهرة التي تميّز حياة التوارج الاجتماعية ، ويختلفون بها جدّ الاختلاف عن اخوانهم المسلمين هي هذه السهرات التي يُسمونها « آهالْ » وهي مجامع لهو وأنس ، يجتمع فيها الرجال العزّاب بالأوانس والأيامى من النساء . يتسامرون ويتناجون ، ويغنون ويلهون الى ساعة مؤخرة من الليل ، أو حتى مطلع الفجر . وذلك انهم اذا فرغوا من العشاء خرج النساء غير متخذات الاخدان (الازواج) الى ساحة قريبة من منازلهن ، وجلسنَ جمعاً واحداً أو أكثر كما يشتهين ، وجعلت منهنَّ تغنّي وتوقّع على ربابٍ يسمّونهُ « آمزاد » وهو قارورة قرعة مجلّد ، وتتخذ لها أوتارٌ من أعراف الخيل . ... رجل ملثّم الوجه منتبهاً ، ومتجمّلاً أنيقاً . فيرشق حربتهُ الى جانب خطيبته (وصاحبته) (عطيه) . واتخاذ الصاحبة بغير نية الزواج أمر معروف عندهم لا ريبة فيه ولا عيب . ثم يؤذن له ، فيجلس اليها جلسة قائمة مستوية لا يتكئ فيها ، ولا يتلفت ولو لحادث مهم وقد يكون الرجل على بضعة أميال من « آهال » ، فيتخذ خصيصاً لهذا الأمر مهريًّا نجيباً ، حتى اذا بلغ « المجمع » سلّم ، وأناخ راحلته ، ولكنهُ لا ينزل حتى يؤذن لهُ من كبيرة المجمع . ولا تكون هذه الكبيرة إلاّ امرأة ، وهي التي لا ينصرف أحد من المجمع إلا باذنها

وفي « آهال » لا يرفع الرجل صوتهُ فوق صوت المرأة ، ولا يغنّي ، إلا اذا رغبنَ منهُ ، وألححن عليه وكان حسَن الصوت ، وأذنت لهُ صاحبته . ومنتهى الأدب والوقار والحياء عندهم ان يتأدّب الرجل بهذه الآداب ، أو يتقيّد بهذه القيود التي لا تتقيّد المرأة بواحد منها . حتى انها لا تتجمّل ولا تتأنّق في أكثر الأحيان ، وتلقي خطبها في

« آمال » وهي في بذلتها اليومية . والمرأة عند بعض العرب والبربر في الجزائر هي التي لا ترفع صوتها فوق صوت الرجل ، وتتأدب بآداب لا يكاد الرجل يتأدب بواحد منها

وإذا مضت دولة الليل أعلنت الكبيرة بانفضاض الجمع . وخلت حينئذٍ الصاحبة بصاحبها ، وجلست الفتاة بخليلها ، بعيداً عن الانظار ، وخلاءً من العيون ، الى مطلع الفجر أو الى مطلع الشمس . ويقول السيد يحيى أبو ثمن أن هذه الخلوات لا شك فيها . ويؤكد انها لا تكون إلاّ على حب طاهر غير آثم ، وعفاف تام لا شائبة للريبة فيه . مع اني سمعت مثل هذا عن بعض بادية الجزائر التي يلتقي فيها العاشقان في اغفاءة الواشي وغفلة الرقيب ، فما انا بمؤمن بمثل هذا العفاف . ولئن آمنت به فيما بين العاشقين اللذين لا يلتقيان إلاّ اللحظة بعد اللحظة يختلسانها اختلاساً ولا يكادان ينعمان فيها ، ولا تكاد تسعهما لا كثر من السلام ومقدمات الحديث ، فلا أراني أؤمن به فيما بين العاشقين اللذين يلتقيان في كل يوم وليلة ، ويبيتان في مثل لحاف واحد ، من غير أن يحذرا واشياً أو رقيباً لأن الحب الشهم الذي يريد ان يشتفي لا يبالي بالعفاف بل قد يعمي صاحبه « حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن »

الملابس والزي

اذ كلب البرد واشتدّ لبس اهالي امرر لاتقائه عباءات وبرانس من الجلد ، ولا يلبسون البرانس الا ان تكون من الجلد . ولبس غيرهم بدل البرانس سترة كبرى من صوف تأتيهم من توات وهي خشنة مثل بعض ما نتخذه نحن في الشتاء غطاء . وملابس الرجال والنساء متماثلة في شكلها ونوعها ، وهي من اقمشة خشنة بسيطة ترد عليهم من بلاد الانكليز ويصبغونها بالنيلة الزرقاء . والفخر عادة عندهم ما كانت تميز زرقة ولمعاناً . ويلبس نبلاؤهم أثواباً مفوفة بجبة زرقاء . ولا يغسلون ثيابهم البتة ، ولا يخلع الواحد منهم ثوبه حتى يبلى على جلده . ويصبغون جلودهم ايضاً بالنيلة الزرقاء . ولا يغسلون وجوههم ولا ايديهم ولا ارجلهم . ويتيممون للصلاة بالتراب ولا يتوضؤن لها بالماء . وهم اصحاء غير مرضى ، والماء موجود غير مفقود . ويلبسون نعالاً بسيطة يتخذونها من جلد الزرافة او من جلد المها (بقر الوحش) ويخيطون اليها طبقة من الجلد الغلالي الناعم المرقوم بنقوش يباهون بها كما يتباهون بالنقوش البديعة التي ينقشونها على برانس الجلد وجبابه

ونعل الرجل عريضة اوسع من رجله ، بخلاف المرأة فنعلها قدّ رجلها . وكذلك الامر في الثياب . وقد يتخذ الرجل في عباءته « جيباً » يبلغ ذراعاً مربعاً يتباهى بسعته

ويتخذ الرجل منهم لثاماً يتلثم به . وهو من نوع القماش الذي يلبسونه . ويجب ان يكون خشناً ومصبوغاً ايضاً بالازرق . ويجب ان يكون في نجبه وزرقته لامعاً زاهياً . ويلثم الرجل ،

ثم لا ينزع لثامه ، الا اذا خلا في منزله . ومن العار عندهم ان يكشف الرجل عن وجهه امام امرأة ، ولا سيما امام حماته (ام زوجته) . ومن حكاياتهم ان رجلاً كان ذات يوم عرياناً وغير متلثم ، وقد لف فوطة بوسطه فرأى حماته مقبلة عليه ، فسرعان ما انتزع الفوطة من وسطه والتثم بها ، وقابل حماته مقابلة فيها الادب والوقار ! وفيها المروءة والحياء ! وهم يذكرون هذا الرجل بكل تجلة واحترام ، ويصفونه بكمال الادب والمروءة . والسبب في اصل اللثام هو التوقي من الحر والبرد والغبار . او الاصل فيه : التنكر لاجل النهب والغارة. واذا طالت لحية الرجل تحت اللثام ظفرها واذا حجم ، او حلق رأسه توارى بذلك من الناس

عقائدهم

هم مسلمون كما رأيت ، ولكنهم يعتقدون انهم هم المسلمون حقاً . وان « جانت » بلدة مقدسة ، ويزعمون أن مكة المكرمة بالبيت الحرام الذي فيها كانت عندهم في جبل قريب من « جانت » هذه ، ويزعمون ان كلباً اسود جاء ذات يوم ، فحال بينها وبين طلوع الشمس فانتقلت الى الحجاز حيث هي اليوم . وما زالوا الى اليوم يسمون هذا الجبل « مكة » ومهما كانت هذه الخرافة ، فمناها تقديس بلدتهم ، وقصر الدين على انفسهم . وعندهم خرافات حربية ، يصفون فيها ابطال النهب والغارة باوصاف الربوبية ، وهم اتباع للطريقة السنوسية ويعظمون الشيخ السنوسي تعظيماً كثيراً . ومع ذلك فليسوا كبقية المسلمين الذين وضعوا خرافات كثيرة رفعوا فيها « الاولياء » الى مقام الالوهية ، واتخذوا من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله

ومما أخذه الطوارق عن « كفرة » انه اذا جاء أجنبي غير مسلم يزور مسجداً من مساجدهم كشفوا عنه ، وعاينوه ، فإن وجدوه رجلاً ذكراً وشاهدوه ، واذنوا له بان يدخل المسجد ، وإن وجدوه امرأة منعوها من الدخول . ولست ادري ماهو اصل هذه الخرافة . ولا يتساهلون في معاينة الزائر ، والكشف عنه ، مخافة من الزائرات اللاتي يجيئهم لابسات ملابس رجال ، ويشتبهن عليهم بالزائرين الذين يحلقون لحاهم وشواربهم ! وكانت زائرة انكليزية مشهورة ، ولعلها مسز فوربس لبست لباس رجل ، واحتالت على أهل « كفرة » فدخلت الجامع ، وسمحوا لها بالدخول ظناً منهم انها رجل . فمنذ ذلك اليوم أوجبوا معاينة كل زائر يزور المسجد . ولعله من هنا اعتقد الغربيون اعتقاداً خاطئاً ان المسلمين لا يبيحون للمرأة أن تدخل المسجد

ولقد ارسلت فرنسا الى تلك البلاد نفراً من « مقاديم » الطريقة التجانية ، ونفراً من اشياخ الطريقة القادرية ، ليحملوا الناس هنالك على الرضى بالاحتلال الافرنسي ، وليطفئوا ما في صدورهم من نزعة الى المقاومة والدفاع . ثم ليقوموا في البلاد التي مازالت حرة

بدعاية تمهد لقرنا طريق الاستعمار . ومع انهم لا يدركون الغرض الحقيقي من تلك الطرق الصوفية فانهم ينظرون اليها كما تنظر الى بدعة منكرة ، ذلك بانها ما تزال جديدة ، لم يمرّ عليها الوقت الكافي لتكون امراً قديماً يحتفظ به الناس ويقدّسونهُ تقديساً . والعامة قد تنكر الجديد ولو كان حقًّا ، وتتبع القديم ولو كان باطلاً

اعيادهم

واهم عيد عندهم هو عاشوراء ، ويسمّونها : « السّبيبة » ، ومدّتها عشرة أيام اولها غرة المحرم . ويأتونها من كل فج عميق ، ويذكرون ان رجلاً منهم كان على عشر ليالٍ من « جانت » فجاءها ليقضي بين قومهِ فيها ايام هذا العيد ، حتى اذا لم يبق بينهُ وبينها الا ثلاث ليالٍ ادركه وقت الرقص من يوم السبيبة ، وعرف انهُ لا يصل « جانت » قبل ثلاثة ايام ، جعل يرقص وحده نحو ركوة ماء كانت معهُ فأراقها ، وليس امامهُ ماء سواها فمات عطشاً . وهم يعدُّونهُ شهيداً ، ويترحمون عليهِ . وفي هذا العيد يرقصون ، ويتفاخرون كثيراً . وتختار كلّ قبيلة منهم فرقة خمسة او اربعة من ابرع شبانها الراقصين ، وتزينهم باجمل زينة ، وتلبسهم بأزهى العمامات زرقةً ولمعاناً ويحشر الناس ضحى في صعيد واحد . ثم تتبارى الفرق الراقصة على غناء النساء ، فمن حازت الاستحسان والاعجاب كان ذلك فوز لقبيلتها ، وحسبتْ هذه القبيلة انها قد ظفرت بالسعادة ، واقبلت عليها الدنيا بحذافيرها وتكون احب الناس الى القبيلة التي يعجبك رقص فرقتها . وتحكم بينهم لجنة محايدة ، وكثيراً ما يكون حكم اللجنة سبباً للتنافرة والخصومة

واما اعيادهم الاسلامية الاخرى فانهم يعيّدونها كما يعيّدها المسلمون الآخرون . الا إنهم اذا فرغ الامام من خطبة عيد الاضحى قذفوه بالحصى وتمايضوا اليه يقبلونهُ ! . .

واخيراً نلفت نظر القراء الكرام الى هذا المقام الرفيع الذي نالتهُ المرأة التارجية بالنسبة للرجل ، وهو مقام المرأة الغربية من حيث مساواتها بالرجل . والرجل عند التوارج يتقيد امام المرأة بقيود . لا تتقيد هي بواحد منها . حتى انهُ يتزين لها ، ولا تتزين هي له ولا يرتفع صوتهُ فوق صوتها . ولا يأكل ولا يشرب امامها . ولا تراه قد حسر من لثامه . ويكاد يقف بين يديها كما يقف بين يدي الله خشية وخضوعاً . وهنا هل يحق لنا ان نسمي « حرية المرأة التارجية »هذه، حضارةً وتمدّناً ؟ وهل دعاة « السفور » يدعون المسلمة الشرقية الى الرقي والتقدم ، ام يدعونها الى التأخر ، ويرجعون بها الى الوراء ؟ وهل يسرُّ المسلمة الشرقية ان تكون من الحور المقصورات في الخيام ، أم يسرها ان ترتقي وتتمدّن ، حتى تكون كالمرأة التارجية حريةً وسفوراً ؟ ! تلمسان (الجزائر) محمد السعيد الزاهري